البعد الإنجازي للاستفهام في القرآن الكريم من خلال تفسير أبي السعود

خليفة عيسات*
جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2
aissatkhalifa81@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/04/21 **تاريخ القبول:** 2024/06/25 **تاريخ النشر:** 2024/12/30

ملخص:

يخص هذا البحث دراسة جانب مهم من الأفعال الكلامية ألا وهو أسلوب الاستفهام الذي يعد من الأساليب الإنشائية الطلبية في البلاغة العربية. ويندرج ضمن الأفعال الكلامية التوجيهية في التداولية والتي يخرج فيها من الطابع الإخباري إلى فعل إنجازي تتولد عنه قوة إنجازية بحسب السياق كما أنه يكتسي أهمية بالغة في الحوار والحجاج والتأثير في المتلقي. كما نسعى في هذا البحث إلى ربط بين التراث العربي القديم باللسانيات الغربية الحديثة. ويهدف هذا البحث إلى الكشف البعد الإنجازي للاستفهام في القرآن الكريم من خلال تفسير أبي السعود الموسوم بـ"إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم" الذي يعد من التفاسير القرآنية الزاخرة بالتطبيقات البلاغية والتي تراعي الأغراض التخاطبية والمقاصد التواصلية وتتجلى فيه الممارسة التداولية وقد توصلت الدراسة إلى الكشف عن القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا للاستفهام والوقوف عن المنهج التفسيري التداولي عند أبي السعود.

الكلمات المفتاحية: الأفعال الكلامية- البعد الإنجازي- الاستفهام- الخطاب القرآني- أبي السعود.

*المؤلف المرسل باللغة اللاتينية: Khalifa Aissat

Illocutionary dimension of interrogation in the holy Quran: an analysis through Abu al-Saoud's exegesis

Abstract:
This research explores a pivotal aspect of speech acts, specifically the interrogative mode, which constitutes a significant requestive act in Arabic rhetoric. It aligns with directive speech acts within the scope of pragmatics, transitioning from mere informative expression to an illocutionary act that engenders an illocutionary force contingent upon the context. Its importance in dialogue, argumentation, and the potential to influence the recipient is profound. Additionally, this study endeavors to create a synthesis between the rich linguistic heritage of ancient Arabic and the theoretical frameworks of contemporary Western linguistics.
The primary objective of this research is to uncover the illocutionary dimension embedded in the interrogatives of the Holy Quran, as interpreted by Abu al-Saoud in his work "Irshad al-Aql al-Salim ila Mazaya al-Kitab al-Hakim" (The Guidance of the Sound Mind to the Virtues of the Holy Book). This exegesis, rich in rhetorical applications, pays close attention to communicative intents and purposes, highlighting the pragmatic practices within. The investigation reveals the intrinsic illocutionary force necessitated by the use of interrogatives and delves into Abu al-Saoud's approach to pragmatic exegesis.

Keywords: Speech Acts- Illocutionary Force- Interrogation- Quranic Discourse- Abu al-Saoud.

Dimension d'accomplissement de la question dans le Saint Coran à travers l'interprétation D'Abu al Saoud

Résumé :
Cette étude concerne un aspect important des actes de langage, à savoir le style interrogatif. Ce dernier est considéré comme l'une des méthodes constructives impératives de la rhétorique Arabe. Il rentre dans l'acte de parole dans la pragmatique, dans lesquels il émerge de la nature déclarative pour devenir un acte accomplissant qui génère une force accomplissant selon le contexte. Il est également d'une grande importance dans le dialogue, l'argumentation et l'influence sur le destinataire. A travers cette étude, nous espérons également parvenir à relier l'héritage arabe ancien à la linguistique occidentale moderne.
Cette recherche vise à révéler la dimension d'accomplissement de l'interrogatif dans le Saint Coran à travers l'interprétation d'Abu al Saoud, intitulée"Guider l'esprit sain vers les mérites du Saint Coran ", qui est considérée comme l'une des interprétations coraniques qui regorge d'applications rhétoriques qui prennent en compte les objectifs communicatifs et reflètent la pratique pragmatique. L'étude a révélé le pouvoir de réussite requis pour la position de questionnement et la position sur les approches interprétative et pragmatique selon Abu al Saoud.

Mots clés : Actes du langage- Dimension de réalisation- Interrogatif- Discours coranique- Abu Al-Saoud.

مقدمة

يعالج هذا البحث البعد الإنجازي لأسلوب الاستفهام الذي يعد من الأفعال الكلامية التوجيهية في نظرية أفعال الكلام، وقد تم اختيارنا لتفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت 986 ه) الذي يعد من بين التفاسير الذي تتجلى فيه الممارسة التفسيرية التداولية، ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن الملامح التداولية في التفسير والبحث عن الآليات التداولية التي وظفها أبي السعود في الكشف عن القوة الإنجازية للاستفهام، ومن هذا المنطلق جاءت الدراسة موسومة بـ: "البعد الإنجازي للاستفهام في القرآن الكريم من خلال تفسير أبي السعود"، وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يدرس الخطاب القرآني بمنظور لساني تداولي ويمزج بين الدراسة التراثية العربية لأسلوب الاستفهام والمعالجة التداولية الممثلة في نظرية أفعال الكلام مع مراعاة خصائص الخطاب القرآني، وسنحاول من خلال هذا البحث الإجابة عن التساؤل الآتي: كيف تتجلى الأبعاد الإنجازية للاستفهام في تفسير أبي السعود؟ واقتصر البحث على اختيار نماذج لأسلوب الاستفهام من مدونة البحث ودراستها لتبيين الأدوات الإجرائية التداولية التي قرأ بها أبي السعود الخطاب القرآني والكشف عن المنحى التداولي في تفسيره والوقوف عن البعد الإنجازي للاستفهام في تفسير أبي السعود، وذلك بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي لكونه الأنسب للدراسة.

1 .الأفعال الكلامية غير المباشرة

اهتم علماء البلاغة العربية قديما بدراسة تولد معاني ثانوية فرعية عن المعاني الأصلية وقد أشار كل من الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز والسكاكي في كتابه المفتاح وعلماء آخرون إلى تفسير وتحليل تولد معاني فرعية عن المعاني الأصلية وطريقة انتقالها من المعنى الحرفي غير المقصود إلى المعنى غير المباشر المقصود بحسب السياق والمقام مثل تولد معاني التقرير والاستبطاء والإنكار والتهويل والتوبيخ والتعجب من الاستفهام ومعيار امتناع إجراء أبواب الطلب على الأصل وتولد معاني فرعية هو المناسبة المقامية بحسب تفسيرات السكاكي (صحراوي، لحظة ميلاد التداولية، 2023، ص 200). وقد فرّق جون سيرل بين الأفعال الإنجازية المباشرة والأفعال الإنجازية غير المباشرة، فإذا كان الكلام مطابقا للمعنى الحرفي لملفوظه فيكون الفعل الإنجازي مباشرا، أما إذا لم يطابق مراد المتكلم المعنى الحرفي لملفوظه فيكون الفعل الإنجازي غير مباشر (الحسناوي، 2016، ص 68). والقوة الإنجازية للأفعال الكلامية المباشرة تكون ملازمة لها في مختلف المقامات، بينما الأفعال الإنجازية غير المباشرة فموكلة للمقام ولا تظهر قوتها الإنجازية إلا فيه (نحلة، د. ت، ص 83)، فملامح التداولية تظهر جلية واضحة في تفسير السكاكي للأساليب الإنشائية الطلبية من خلال اعتنائه بالمعاني غير المباشرة للأساليب الطلبية كالأمر والنهي والاستفهام والنداء، والبحث عن مقاصد المتكلم ومدى مخالفة مراد المتكلم لظاهر اللفظ كخروج الاستفهام إلى أغراض أخرى، مثل الإنكار والاستبطاء والتوبيخ بحسب السياق المقالي والسياق المقامي للخطاب وهذا ما تعرف به التداولية على أنها دراسة اللغة في الاستعمال.

2. التوجيهيات Directives

والغرض منها الطلب وتوجيه المتلقي إلى فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى القول والمسؤول عن إحداث المطابقة هو المخاطب والشرط العام للمحتوى القضوي هو إنجاز المتلقي فعل ما في المستقبل، والشرط المعد لها هو قدرة المخاطب عن أداء المطلوب منه والحالة النفسية التي يعبر عنها في التوجيهيات هي الإرادة أو الرغبة الصادقة (الطبطبائي، 1994، ص 42). وكثير من أفعال القرارات وأفعال السلوك عند أوستين تندرج ضمن صنف التوجيهيات عند سيرل (الصراف، 2010، ص 70)، ويدخل في التوجيهيات الأساليب الإنشائية الطلبية، الاستفهام، والأمر، والنداء، والنهي، والتمني.

3. مفهوم الاستفهام

يقول السكاكي (ت 626 ه): "فإنّك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق، فنقش الذهن في الأول تابع وفي الثاني متبوع". (السكاكي، 1987، ص 303) فنقش الذهن في الاستفهام تابع بينما في باقي الطلبيات متبوع وقد أوضح السكاكي الفرق بين طلب الحصول في الذهن وطلب الحصول في الخارج بقوله: "والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حكما بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور، ولا يمتنع انفكاكه من التصديق". (السكاكي، 1987، ص 415) فالبعد التداولي للاستفهام يتمثل في طلب حصول صورة الشيء في الذهن بالتصديق أو التصور أما الغرض الإنجازي للاستفهام هو محاولة المتكلم توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما (الطبطبائي، 1994، ص 82).

4. القوة الإنجازية (force illocutoire)

ومن أجل تفكيك بنية الفعل الكلامي لتحرير عناصرها إلى وحداتها الأولية، قسمها جون سيرل"John Searle"إلى مستويين: المستوى الدلالي المنطقي، والمستوى التداولي؛ فسمى المستوى الأول: محتوى القضية(contenu propositionnel) وسمى الثاني: القوة الإنجازية (force illocutoire) وهذا الأخير هو المكون الذي يطبعها بطابعها التداولي الصريح (صحراوي، 2023، ص 07). والقوة الإنجازية التي يمكن أن تواكب العبارات اللغوية، قوتان: قوة إنجازية حرفية، وقوة إنجازية مستلزمة، ويميّز عادة بين هاتين القوتيّن على أساس أن القوة الإنجازية الحرفية تكون ملازمة للعبارة اللغوية في مختلف المقامات التي ترد فيها بينما القوة الإنجازية المستلزمة فهي مرتبطة مقاميا بحيث لا يتم توليدها إلا في طبقات مقامية معينة، ويتوصل إليها عبر عمليات ذهنية استدلالية (المتوكل، 1993، ص 21).

يمتلك الفعل الكلامي قوى إنجازية متعددة بحسب السياق الذي ورد فيه فالقوة الإنجازية مرتبطة بالمنطوقات لا الجمل؛ فالمنطوق الواحد بإمكانه أن يتضمن قوى إنجازية مختلفة، في مقامات مختلفة، فالقوة الإنجازية إذن هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد، في سياق معين من سياقات استعمال المنطوق (العبد، 2005، ص 138). فالقوة الإنجازية هي القصد الذي ينويه المتكلم أو يستلزمه خطابه مقاميا من خلال القوة الإنجازية الحرفية الحاضرة في العبارة اللغوية أو القوة الإنجازية غير المباشرة المستلزمة التي يتم توليدها في طبقات مقامية معينة، ومحددات هذه الأفعال الإنجازية بحسب التداوليين قوامها عنصران أساسيان ضمن مؤشرات السياق، وهما: القصد والاستعمال (كروم، 2015، ص 135). وقد اختلف أوستين "Austin" وسيرل في مفهوم القوة الإنجازية فيرى أوستين أن القوة الإنجازية تحقيق لمقصد المتكلم تحقيقا ناجحا، بينما سيرل "Searle" يرى أن القوة الإنجازية حاصل تفسير المتلقي للمنطوق (كروم، 2015، ص 139). وقد ميّز سيرل "Searle " بين مفهومين: مفهوم "فعل القول" ومفهوم فعل القوة، فيرى أن الأول هو الفعل اللغوي ذو المعنى المحدد في لغة من اللغات، بينما الثاني هو ملء هذا اللفظ بقوة إنجازية معينة كأن يكون فعل القول ظاهره " الاستفهام" ولكن قوته الإنجازية هي الإنكار (صحراوي ، 2023، ص 165). وجون سيرل يلح على أن الفعل الكلامي الحقيقي هو الفعل الإنجازي الذي يتضمن قوة إنجازية، أو هو القوة الإنجازية ذاتها، فتركيز سيرل كله على القوة وإلحاحه على تعيين مؤشر هذه القوة (صحراوي ، 2023، ص 07). فتحليل سيرل"Searle" كان منصب على القوة الإنجازية ويرى أن الفعل الكلامي الإنجازي هو الذي يتضمن قوة إنجازية ويتوفر على عناصر القوة الإنجازية وأهمها الغرض الإنجازي واتجاه المطابقة.

5. الجانب التطبيقي

1.5 البعد الإنجازي للاستفهام في تفسير أبي السعود:

أ. الاستفهام التقريري:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف، الآية: 90]

والاستفهام تقريري وقالوه تعجبا واستغرابا لأنهم كانوا يعتقدون أن يوسف قد هلك إلا أن يوسف مازال حيا وقد من الله عليه بالاجتماع مع أخيه بعدما فرقوا بينهم (أبي السعود، د. ت، ص 426، ج3) والاستفهام في قوله (أ إنك لأنت يوسف) خرج عن القوة الإنجازية الحرفية وهي الاستفهام إلى قوة إنجازية مستلزمة مقاميا وهي التقرير ، وقد أكد ذلك "بأن واللام" لأنه سؤال المقرر بأنه أخوهم يوسف، فيوسف عليه السلام أخبرهم وأثبت لهم أنه مازال حيا، وأن الله قد أنعم عليه وجمعه مع أخيه بعد فراق طويل، وقد فرج الله عليه ونصرهم بعد العسر والظلم الذي تعرض له هو وأخيه، وكل هذا بالصبر والتقوى. فالفعل الكلامي في الآية الكريمة فعل كلامي تقريري له قوة إنجازية مباشرة وهي الاستفهام وقوة 'إنجازية غير مباشرة وهي التقرير لتحقيق القول وتثبيته، فأبي السعود بين غرض الاستفهام وهو التقرير وهو الفعل الكلامي غير المباشر وهذا له بعدا تداوليا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكافِرِينَ﴾ [العنكبوت، الآية: 68]

يقول أبي السعود في تفسيره للآية أن أشد الناس ظلما هم الذين يفترون على الله الكذب وجعلوا لله شريكا وكذّبوا ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وسارعوا في تكذيبهم، وأعرضوا عن الحق والاستفهام في قوله تعالى (أليس في جهنم مثوى للكافرين) للتقرير وهم يستوجبون الثواء في جهنم وتكون مسكنا لهم لافترائهم على الله وتكذيب رسوله (أبي السعود، د. ت، ص 58، ج7) يرى أبي السعود أن الاستفهام في الآية (أليس في جهنم مثوى للكافرين) يفيد التقرير لأنها دخلت همزة الاستفهام على أداة نفي فتفيد التقرير والمعنى؛ أنه يوجد مثوى ومستقر للكافرين في جهنم لأنهم جعلوا لله شريكا وولدا وكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام. وأعرضوا عن كتاب الله وبهذا خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معنى غير مباشر وهو التقرير بواسطة القرائن المقالية لتقرير الخبر وتحقيقه وأن مصير الكافرين هو جهنم.

ب. الاستفهام الإنكاري:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عَندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة، الآية: 140]

والاستفهام في قوله: (ومن أظلم) يفيد الإنكار لأن من أشد الظلم كتمان شهادة ثابتة من الله. وشهد الله تعالى أن محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء كانوا على الإسلام وشهد لهم بالبراءة من اليهودية والنصرانية، أما أهل الكتاب فكتموا الشهادة وأثبتوا نقيضها، وافتراؤهم على الأنبياء. وفي الآية تهديد ووعيد لأهل الكتاب الكاتمين للشهادة (أبي السعود، د. ت، ص 170، ج1) تضمنت الآية فعلا كلاميا توجيهيا تمثلت قوته الإنجازية الحرفية المباشرة في الاستفهام الذي دلت عليه أداة الاستفهام (من) وصيغة المبالغة (أظلم)، وقوة إنجازية غير مباشرة متضمنة في القول هي الإنكار؛ فقد أنكر الله تعالى محاجتهم في دين الله بغير حق وأنكر أن يكون أحد أكثر ظلما ممن يكذب على الله لان المتكلم الله عز وجل لا يستفهم عن من هو أظلم ممن يفتري على الله الكذب وإنما ينفيه وينكره، يقول أبي السعود:" (ومن أظلم) إنكار لأن يكون أحد أظلم ممن كتم شهادة ثابتة عنده كائنة من الله وهي شهادته تعالى له عليه السلام بالحنفية والبراءة من اليهودية والنصرانية" (أبي السعود، د. ت، ص 170، ج1) والخطاب في الآية حسب رأي أبي السعود لأهل الكتاب الذي كتموا الشهادة والحق الذي نزل عليهم وهم على علم بأن إبراهيم

وبنيه كانوا مسلمين وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله، لكنهم أظهروا الباطل ودعوا إليه وهذا من أعظم الظلم فكان وعيد وتهديد الله لهم على مزاعمهم الباطلة بإدخالهم إلى نار جهنم .

قال الله تعالى: ﴿والّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَـهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْـتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلّا اللهُ﴾ [آل عمران، الآية: 135].

الاستفهام في قوله: "ومن يغفر الذنوب إلا الله" وغرضه إنكاري يفيد النفي والمقصود بالذنوب جنسها ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله تعالى ووصف سبحانه بسعة الرحمة وعموم المغفرة لتقرير الاستغفار والحث عليه (أبي السعود، د. ت، ص 87، ج2). يبين أبي السعود أن الاستفهام في قوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله) قد خرج عن المعنى الأصلي وهو السؤال إلى معنى مجازي يفهم من السياق يفيد الإنكار والنفي بمعنى لا أحد يغفر الذنوب إلا الله وحده فأنكر ونفى كل من يدعي أنه يغفر الذنوب سوى الله وأنه يغفر ويعفو عن التائبين من عباده المؤمنين الذين إذا فعلوا فاحشة أو ارتكبوا الذنوب ذكروا واستغفروا الله وتابوا إليه توبة نصوحا فيكونوا من عباده المتقين. والاستفهام الإنكاري هنا له بعد إنجازي حجاجي هو دفع المتلقي إلى ترك الفواحش والاستغفار ليتوب الله عليه.

ج. استفهام التعجب والتعجيب:

قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهلية يَبْغُونَ وَمنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَومٍ يُوقِنونَ﴾ [المائدة، الآية: 50]

والاستفهام للإنكار والتعجيب من حالهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام بمعنى أيتولون عن حكمك ويبغون حكم الجاهلية وتقديم المفعول للتخصيص وتأكيد الإنكار والتعجيب لأن التولي عن دين الله وحكمه والاحتكام إلى حكم الجاهلية التي هي الهوى والجهل منكر عجيب وقبيح وهم يعلمون يقينا أن حكم الله تعالى أفضل الأحكام وأعدلها (أبي السعود، د. ت، ص 48، ج3). تضمنت الآية فعل كلامي مباشر تمثلت قوته الإنجازية في الاستفهام الذي دلت عليه القرينة اللغوية والمتمثلة في الهمزة، أما الفعل الإنجازي غير المباشر يحمل قوة إنجازية مستلزمة مقاميا وهي الإنكار والتعجيب يقتضيها السياق والمقام حسب ما أكده أبي السعود في تفسيره. فالله تعالى ينكر على كل من خرج وأعرض عن حكم الله المبني على العدل والقسط، وعدل إلى حكم الجاهلية المخالف لما أنزل الله على رسوله عليه الصلاة والسلام. وتعجب من إتباعهم لحكم الجاهلية وإعراضهم عن الحق وهم يعلمون أن حكم الله أعدل وأفضل.

قال الله تعالى: ﴿أَرأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ أَفَأنتَ تَكُونُ عليهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان، الآية: 43]

والاستفهام يفيد معنى التعجيب بمعنى تعجيب النبي عليه الصلاة والسلام من شناعة حالهم بعد حكاية أقوالهم القبيحة، وبيان مصيرهم وعاقبتهم، والتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه، وتقديم إلهه المفعول الثاني لأتخذ على المفعول الأول "هواه" للاعتناء بالمقدم لأنه يدور عليه أمر التعجيب بمعنى أرأيت من جعل هواه إلها لنفسه معرضا عن دين الله وعن استماع الحجة الباهرة والاستفهام في قوله (أفأنت تكون عليه وكيلا) يفيد الإنكار والاستبعاد ف الله عز وجل ينكر ويستبعد أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام حفيظا عليهم حتى يردهم إلى الإيمان ويخرجهم من الضلال وإتباع الهوى (أبي السعود، د. ت، ص 221، ج6). تضمن الآية أفعال كلامية مباشرة وأفعال كلامية غير مباشرة حسب سياق الآية والخطاب موجه للمشركين العابدين للأوثان وإخبار للرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم قوم يتبعون هواهم، والاستفهام في قوله (أرأيت) يتضمن فعل كلامي مباشر هو الاستفهام وفعل كلامي غير مباشر تمثلت قوته الانجازية المستلزمة مقاميا في التعجيب، أي التعجب من شناعة أحوالهم ومن قبح أقوالهم، بالإضافة إلى فعل كلامي مباشر هو الاستفهام في قوله: (أفأنت) الذي تضمن فعل إنجازي غير مباشر تمثلت قوته الإنجازية المستلزمة مقاميا في الإنكار والاستبعاد فقد أنكر الله تعالى واستبعد عن رسوله عليه الصلاة والسلام أن يكون عليهم حفيظا ووكيلا .

د. الاستفهام الإنكاري التوبيخي:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الّذينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتخِذُوا مِن دونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلاَ المُؤمِنينَ وَلِيجةً﴾ [التوبة، الآية: 16]

والاستفهام في قوله (أم حسبتم) إنكاري توبيخي، والمعنى أحسبتم وظننتم أن تتركوا ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا والخطاب إما للمؤمنين الذين شق عليهم الجهاد أو خطاب للمنافقين ليعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا وليجة والوليجة بمعنى بطانة من المشركين ونهى الله أن يتخذ المؤمنين أولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم، فالجهاد يظهر المطيع لله الصادق في دينه من المنافق العاصي لله (أبي السعود، د. ت، ص 311، ج8) والاستفهام بـ(أم) في الآية عبارة عن فعل كلامي مباشر هو الاستفهام لإخبار المؤمنين بأنه يبتليهم ليظهر المؤمن من المنافق إلا أن سياق الآية أدى إلى فعل إنجازي غير مباشر متضمن قوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي الإنكار والتوبيخ يقول أبي السعود: "أم حسبتم أم منقطعة جيء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق إلى آخر، وما فيها من همزة الاستفهام الإنكاري توبيخ لهم على الحسبان"(أبي السعود، د. ت، ص 312، ج8) والمعنى أن الله شرع الجهاد لعباده ليظهر الله عباده المخلصين من المنافقين وأنه مطلع على نياتهم، فالله تعالى أنكر عليهم ووبخهم على تركهم للجهاد والخطاب بحسب رأي أبي السعود موجه إما لمن شق عليهم الجهاد من المؤمنين أو للمنافقين والتذييل في قوله" والله خبير بما تعملون" تأكيد على أنه يعلم جميع أعمالكم ومطلع على نياتكم وأنه عالم بكل شيء. وعليه يكون البعد الإنجازي للفعل الكلامي فعل كلامي مباشر هو الاستفهام دلت عليه البنية اللغوية، وفعل إنجازي غير مباشر متمثلا في الإنكار والتوبيخ دل عليه مقام الخطاب.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وهُمْ دَاخِرونَ﴾ [النحل، الآية: 48]

والاستفهام في قوله:(أو لم يروا) استفهام إنكاري أي أنكر عليهم عدم التأمل ورؤية مخلوقات الله بأبصارهم وأن كل شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل ويرجع شيئا فشيئا حسبما يقتضيه إرادة الخالق فترجع الظلال من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها منقادة بتقدير العزيز العليم فكل الأشياء وظلالها ساجدة لله تعالى، ووصفها بالدخور لأنها خاضعة وصاغرة لله تعالى بما قدر لها من التفيؤ (أبي السعود، د. ت، ص 118، ج5). يخبر الله تعالى في هذا الخطاب عن عظمته وجلاله وأن كل المخلوقان في الكون خاضعة وساجدة له. وفي الآية فعل كلامي مباشر هو الاستفهام وفعل إنجازي غير مباشر يتضمن قوة إنجازية متضمنة في القول هي الإنكار؛ إنكار على المشركين المشككين والمكذبين في توحيد الله وعظمته وكماله ولم يتأملوا في مخلوقات الله المنقادة والخاضعة لأمره. وتنبيههم على ما هم فيه من ضلال ليرجعوا من الضلال إلى الهدى رغم أنهم شاهدوا ذلك بأعينهم لكنهم لم يتعظوا بما شاهدوا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء، الآية: 10]

والاستفهام في قوله (أفلا تعقلون) استفهام إنكاري توبيخي أي إنكار على المخاطبين من قريش المستهزئين بالقرآن العظيم وهو كتاب عظيم الشأن نير البرهان فيه منافع جليلة، وتوبيخهم بعدم تدبره والتأمل فيما فيه من مواعظ والزواجر والقوارع النازلة على الأمم السابقة واللاحقة (أبي السعود، د. ت، ص 58، ج6). والخطاب القرآني في هذه الآية توجيه من الله إلى قريش المعرضين المستهزئين بالقرآن الكريم وهو كتاب عظيم الشأن الذي فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة والفعل الكلامي المباشر هو الاستفهام التي دلت عليه أداة الاستفهام الهمزة في قوله (أفلا تعقلون) ويحمل قوة إنجازية غير مباشرة هي الإنكار والتوبيخ.

هـ. استفهام إنكار الواقع واستبعاده:

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران، الآية: 101]

والاستفهام في قوله: (وكيف تكفرون) والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع واستبعاد الكفر عن المخاطبين كليا وقوله: (وأنتم تتلى عليكم آيات الله) جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين في تكفرون جاءت مؤكدة للإنكار والاستبعاد ونفي وقوع الكفر وداعية للثبات على الإيمان لأن الرسول بينهم يعلمهم الحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإبعاد الشبهات المؤدية للكفر (أبي السعود، د. ت، ص 65، ج2). تتضمن الآية فعل كلامي مباشر هو الاستفهام دلت عليه أداة الاستفهام (كيف) وفعل كلامي غير مباشر متضمن لقوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي الإنكار والاستبعاد، فالله أنكر واستبعد الكفر عن عباده المؤمنين، لأنهم متمسكين ومعتصمين بكتاب الله وفيهم رسول الله يتلوا عليهم القرآن الكريم وهذا كفيل أن يستبعد عنهم الكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَولُهُمْ أَئِذَا كُنَا تُرابًا أَإِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد، الآية: 5]

والاستفهام في قوله: (أئذا كنا ترابا) استفهام إنكاري يفيد الاستبعاد والاستنكار ليوم البعث وتكرير الهمزة في (أإنا) لتأكيد الإنكار واستبعاد عودتهم للحياة وأن يوم البعث ممتنع بزعمهم وهم منكرون لقدرة الله على البعث وجحدوا الثواب والعقاب، والذي يدعو إلى التعجب من حالهم أنهم شاهدوا الأدلة القاطعة على البعث إلا أنهم كذبوا وجحدوا بذلك مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى (أبي السعود، د.ت، ص 187، ج5). يبين أبي السعود القوة الإنجازية المتضمنة في القول للاستفهام هي الإنكار والاستبعاد فالله تعالى أنكر عليهم استبعادهم وإنكارهم قدرة الله تعالى بإعادتهم للحياة يوم القيامة لمحاسبتهم والعجيب أن هؤلاء المشركين يشاهدون دلالة الله في خلقه وأنه هو الخالق الذي خلق كل شيء إلا أنهم يكذبون إعادة الخلق من جديد والبعث يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿أَفأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالْبَنِينِ وَ أَتَخَذَ مِنَ المَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ تَقُولُونَ قولًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء، الآية: 40]

والاستفهام في قوله: (أفأصفاكم) غرضه إنكار وتكذيب شديد للمشركين القائلين بأن الله اتخذ لنفسه من الملائكة إناثا و زعموا أنهم بنات الله وأنهم خصهم بأفضل الأولاد، فشدد الله عليهم إنكار وقوع ما يدعونه من أكاذيب، وأنكر ونفى أقوالهم الباطلة بوصف الملائكة وهم أشرف الخلق بالأنوثة وإضافة الولد إلى الله. تعالى الله سبحانه عما يقولون وهو ليس كمثله شيء (أبي السعود، د. ت، ص 174، ج5). والآية تتضمن فعل كلامي مباشر قوته الإنجازية الحرفية تدل على الاستفهام وهي الدلالة الأولية المتطابقة ظاهريا مع البنية اللغوية للخطاب إلا أن السياق وقرائن الأحوال يكشف عن فعل كلامي غير مباشر قصده المتكلم ويحمل قوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي الإنكار والتكذيب؛ فأنكر الله تعالى وكذب من زعم أن الله اتخذ لنفسه من الملائكة إناثا وأنهم بنات الله وأنهم خصهم بالذكور والخطاب في الآية لمشركي مكة وهذه فرية عظيمة على الله وقد شدد الله عليهم الإنكار في قوله (إنكم تقولون قولا عظيما) لنفي ما زعموه.

و. استفهام التهويل والتحقير:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ، فَكَيْفَ كَانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر، الآيتان: 15- 16]

يقول أبي السعود إن الله ترك السفينة بأرض الجزيرة وقيل على الجودي مدة طويلة حتى شاهدها أوائل هذه الأمة ليعتبر الناس ويتعضوا من هذه الآيات العظيمة مما أنزل الله من عقوبة على قوم نوح لتكون عبرة لمن بعدهم والاستفهام في قوله (فكيف كان عذابي ونذر) استفهام تهويل وتعجيب أي التهويل والتعجيب من أمرهما بعد بيانهما كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم كيف عذابي لهم الذي لا يحيط به وصف (أبي السعود، د. ت، ص 170، ج8) نلاحظ من تفسير أبي السعود للآية أن الاستفهام خرج عن الدلالة المباشرة وهي الاستفهام المعبر عنه بالأداة الاستفهامية (كيف) إلى فعل إنجازي غير مباشر يحمل قوة إنجازية متضمنة في القول يقتضيها المقام وهي التهويل والتعجيب من شدة وهول العذاب الذي لحق بقوم نوح عليه السلام

الذين كفروا بربهم وكذبوا نبيه نوح عليه السلام فحلت بهم العقوبة وفي الخطاب تحذير للمخاطبين أن يحل بهم من العقوبة مثلما حل بقوم نوح عليه السلام إذا كفروا بالله.

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَي شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس، الآيتان: 17- 19]

والمراد بالإنسان هنا هو الإنسان الكافر الجاحد بنعمة ربه عليه، والاستفهام في قوله: (من أي شيء خلقه) يفيد التحقير من شأن هذا الإنسان الذي خلقه من نطفة وهي شيء حقير مهين ثم قدره أطوارا إلى أن تم خلقه وجعل له ما يليق به من الأعضاء والأشكال ويسر له سبيل الخير والشر ، وعند مماته جعل له قبرا يدفن فيه تكريما له فكل هذه النعم إلا أنه إنسان جاحد وكافر بنعم ربه (أبي السعود، د. ت، ص 110، ج9) جاء التحقير في صورة الاستفهام في قوله تعالى: (من أي شيء خلقه) والفعل الكلامي المباشر هو الاستفهام دلت عليه أداة الاستفهام (من) كما يحمل فعل كلامي غير مباشر يتضمن قوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي التحقير لأن الله خلق الإنسان من شيء حقير ومهين أول مرة وقادر على إعادته مرة أخرى، لكن الإنسان يتكبر ويكفر بالله وهذا هو حال الإنسان الكافر الجاحد.

ز. استفهام التبكيت والتقريع:

قال الله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الطور، الآيتان: 14- 15]

يقال لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون بها في الدنيا والاستفهام في قوله (أفسحر هذا) يفيد التوبيخ والتقريع لأنهم كانوا يقولون عن القرآن الكريم أنه سحر فهذا أيضا سحر أيها المكذبين وقد رأيتموه أمام أعينكم توبيخا لهم كما كنتم تقولون في الدنيا إنما سكرت أبصارنا وأننا قوم مسحورون (أبي السعود، د. ت، ص 147، ج8). وفي الآية فعل كلامي مباشر قوته الإنجازية الحرفية هي الاستفهام لكن الاستفهام غير مراد المتكلم إذ أن سياق الخطاب يكشف عن فعل إنجازي غير مباشر قوة الإنجازية المستلزمة من السياق هي التوبيخ والتقريع فالله عز وجل يوم القيامة يوبخ المشركين المكذبين بدين الله عندما يدخلون جهنم ويقول لهم الله تعال أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون من باب التقريع.

قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَا مِن عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم، الآية: 21]

يقول أبي السعود يبرزون يوم القيامة من قبورهم ليحاسبهم الله تعالى وكانوا يظنون أنهم عندما يرتكبوا الفواحش سرا أن الله لا يعلم بها، فينكشفوا يوم القيامة ويقول الأتباع لرؤسائهم الذين اتبعوهم في الدنيا كنا لكم تبعا في تكذيب الرسل وأعرضنا عنهم بسببكم فهل تدافعون عنا فيقول لهم الرؤساء لم يوفقنا الله إلى الهداية ولو هدانا الله لأرشدناكم إليه والاستفهام في قوله: (فهل أنتم مغنون عنا) يفيد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت عن مصيرهم (أبي السعود، د. ت، ص 41، ج5) وفي الآية فعل كلامي مباشر دلت عليه أداة الاستفهام (هل) قوته الإنجازية المباشرة تتمثل في الاستفهام متضمن لفعل إنجازي غير مباشر يحمل قوى إنجازية فرعية غير مباشرة هي التوبيخ والتقريع والتبكيت؛ توبيخ وتقريع وتبكيت للكافرين يوم القيامة عندما يقول الضعفاء الأتباع لقادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله في الدنيا هل أنتم تدفعون عنا عذاب الله كما وعدتمونا فيقول لهم قادتهم لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم لكن اليوم ليس لنا خلاص من عذاب الله سواء صبرنا أو جزعنا منه.

6. الاستنتاج

حققت هذه الدراسة المزاوجة بين الدراسات التراثية العربية الممثلة في تفسير أبي السعود وبين النظرية اللسانية المعاصرة الممثلة في نظرية أفعال الكلام للوقوف على الملامح التداولية في تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم والكشف عن التفكير التداولي عند أبي السعود.

يعد تفسير أبي السعود مدونة تفسيرية لغوية تتجلى فيها الممارسة التداولية، وملامح التداولية واضحة جلية فيه من خلال مراعاته في العملية التواصلية السياق المقالي والسياق المقامي وأطراف التواصل ومقاصد المتكلم والبحث عن مقاصد الخطاب المضمرة والمعاني الأصلية والمعاني الفرعية غير المباشر ة للملفوظات الاستفهامية بحسب السياق الذي وردت فيه، وهذا يقترب من تحليل نظرية أفعال الكلام.

يعد الاستفهام من الأفعال الكلامية الطلبية التوجيهية التي غرضها محاولة المتكلم توجيه المتلقي إلى القيام بعمل ما. كما أنه يخرج من طابعه الإخباري إلى طابع إنجازي حجاجي في السياق الذي ورد فيه، ويسعى فيه المتكلم إلى تغيير واقع معين من خلال توجيه المتلقي إلى فعل أو ترك شيء ما في المستقبل وإقناعه والتأثير فيه.

اختلفت الأبعاد الانجازية للاستفهام في تفسير أبي السعود باختلاف السياق والمقام الذي ورد فيه، وخرجت من معانيها الأصلية المباشرة التي يدل عليها ظاهر الخطاب، إلى معان فرعية غير مباشرة مستلزمة مقاميا نتجت عن عدم مطابقة القوة الإنجازية الحرفية لمراد وقصد المتكلم ومن أهمها، التقرير، الإنكار، التعجب والتعجيب، التوبيخ، الاستبعاد، التهويل والتحقير، التبكيت والتقريع.

المراجع

الحاج صالح، عبد الرحمان. (1971). مدخل إلى علم اللسان الحديث: تحليل ونقد لأهم مفاهيمه ومناهجه. *اللسانيات*، 1(1).

حجي، الصراف علي محمود. (2010). *في البراجماتية "الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي*. القاهرة: مكتبة الآداب.

السكاكي. (1987). *مفتاح العلوم*(ط2). نعيم زرزور (محقق). لبنان: دار الكتب العلمية.

صحراوي، مسعود. (2023). القوى الإنجازية عند ج. سيرل: بنيتها ومنهج تصنيفها. *مجلة تداوليات*، 1(1).

الطبطبائي. (1994). *نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب* (د. ت). الكويت: مطبوعات جامعة الكويت.

العبد، محمد. (2005). تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب. *مجلة النقد الأدبي*.

العمادي، السعود محمد بن محمد (د. ت). *تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم*. لبنان: دار إحياء التراث العربي.

كروم، أحمد. (2015). *مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي*. عمان: كنوز المعرفة

لحسناوي، فضاء ذياب غليم. (2016). *الأبعاد التداولية عند الأصوليين،مدرسة النجف الحديثة أنموذج*. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

المتوكل أحمد. (1993). *أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي*. المغرب: دار الهلال العربية.

نحلة محمود أحمد. (د.ت) . *أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*. مصر: دار المعرفة الجامعية